الفلسفة العملية

الخطبة الثانية

ذكرنا في الجزء الماضي خلاصة الخطبة الاولى التي تلاها الاستاذ وليم جمس الفيلسوف الاميركي وجعلها تمهيداً لبحثه في الفلسفة العملية . ونحن ذاكرون الآن خلاصة الخطبة الثانية

قال الخطيب كنت منذ بضع سنوات اتنزّه مع بعض الرفاق بين الجبال واتفصلت عنهم قليلاً لبعض شؤوني ثم رجعت اليهم فوجدتهم يتحاورون محاورةً فلسفية وموضوع محاورتهم سنجاب كان واقفاً على ساق شجرة وعلى الجانب الآخر منها رجل يدور حول ساق الشجرة ليرى السنجاب والسنجاب يهرب منهُ الى الجهة المقابلة فلا يستطيع ان يراهُ مهما اسرع في الدوران حول الشجرة . وكان بعضهم يقول ان الرجل يدور حول السنجاب في دورانهِ حول الشجرة وبعضهم يقول انهُ لا يدور حول السنجاب ولو دار حول الشجرة . فلما رجعت اليهم عرضوا الخلاف عليَّ واقاموني حكماً بينهم فخطر ببالي قول اهل الجدل انهُ اذا وقع الخلاف وجب الالتجاء اولاً الى التخصيص فقلت لهم ان الحكم في هذا الخلاف يتوقف على المعنى المراد من الدوران حول السنجاب فاذا اردتم بذلك الدوران من الجهة الشمالية منهُ الى الجهة الشرقية فالجنوبية فالغربية فالشمالية فالانسان دار حولهُ لانهُ كان الى شمالهِ مثلاً فدار الى الشرق منهُ وظلَّ دائراً حتى عاد الى شمالهِ . ولكن اذا اردتم بالدوران ان الرجل كان امام السنجاب ثم صار الى يمينهِ ثم وراءهُ الى يسارهِ ثم عاد الى امامهِ فواضح ان الرجل لم يفصل ذلك فلم يدر حول السنجاب بل بقي امامهُ ولو فصل ساق الشجرة بينهما . فاذا ادخلتم هذا التخصيص في المسألة فالفريقان مصيبان ومخطئان حسب المراد من كلمة دار . فاقتنع جمهورهم بصحة كلامي ولكن بقي منهم مَن يقول اني جئتُ الى المغالطة لكي لا احكم لهم

وقد ذكرت هذه الحادثة الطفيفة لانها تدلُّ على ما اريدهُ بالفلسفة العملية فان الفلاسفة يختلفون في مسائل كثيرة واختلافهم فيها من هذا القبيل . من ذلك اختلافهم في هل العالم واحد او متعدد وهل هو هيولي او روحي وهل الامور متقدَّرة او غير مقدرة . فالفلسفة العملية تستدعي ان يفسَّر المراد بكل قول من هذه الاقوال بتتبيع النتيجة العملية فاذا لم يوجد فرق عملي بين هذا القول وذاك فالمراد بهما واحد ولو اختلفا لفظاً وبذلك ينتهي الجدال واذا كان القولان او الرأيان مختلفين حقيقةً وجب ان يوجد فرق فعلي بين مدلوليهما وبهذا الفرق العملي يتبين الصحيح من الفاسد

واول من استعمل كلمة البرغماتزم ، اي الفلسفة العملية ، المستر تشارلس بيرس في مقالة نشرها في مجلة العلم العام الاميركية سنة ١٨٧٨ . ولكن لم يلتفت اليها الفلاسفة الى ان اعادت ذكرها منذ تسع سنوات واوضحت فائدتها ومن ثم كثر استعمالها في المجلات الفلسفية . وقد رأيت ان اوسفلد استاذ الكيمياء في مدرسة ليبسك جرى على هذه الفلسفة ولو لم يسمها بهذا الاسم وكتب الي يقول " ان كل الحقائق تؤثر في اعمالنا وتأثيرها هذا هو المعنى الذي نفهمهُ لها . ولقد اعتدت ان اسأل تلاميذي قائلاً ان كان هذا الامر صحيحاً فما تأثيرهُ في العالم وان كان ذلك صحيحاً فما تأثيرهُ ايضاً فاذا كان تأثيرهما واحداً فهما صحيحان على حدٍّ سوى او لا اختلاف بينهما والاَّ فهما مختلفان " (اي ان الامور بنتائجها)

ما اكثر المسائل الخلافية التي يزول الخلاف منها وينتهي جدال الفلاسفة فيها اذا امتحنت بهذا المقياس اي نُظر الى نتائجها العملية . فان كان فيها اختلاف حقيقي وجب ان يظهر في نتائجها والاَّ فلا اختلاف فيها . فيجب ان يكون غرض الفلسفة البحث عن النتائج التي تنتج لك ولي ولكل احد في وقت معلوم من حياتنا اذا كان هذا المذهب صحيحاً او ذاك

والفلسفة العملية ليست امراً جديداً فقد كان سقراط من انصارها وجرى ارسطوطاليس عليها وعلى اسلوبها سار لوك وبركلي وهيوم لكن هؤلاء الفلاسفة استعملوها من غير انتظام وعلى غير قاعدة ولم يظهر انها عامة الاَّ في زماننا . وعندي انها ستمتُّ كل معارف الناس ويكون الفوز لها اخيراً

نعم ان القسم العملي من الفلسفة كان شائعاً دائماً ويراد الآن ايضاحهُ على اسلوب قانوني وبصورة مقبولة . والفيلسوف العملي يغضي عن كثير من المسلَّمات التي اعتاد الفلاسفة التصديق بها والاعتماد عليها — يغضي عن الاقوال الموضوعة التي تتخذ حجةً والقضايا المسلَّمة التي تحسب من البديهيات والقواعد التي تُشيَّد العقل بها والدعاوي التي مدادها خرق حجاب الغيب والوصول الى مالا تدركهُ العقول . يغضي عن هذه كلها ويلتفت الى الحقائق المتقرَّرة الى الامور المادية الى الاعمال . الى القوى . الى ما نراهُ ونشعر به . فيترك الامور النظرية ويتمسك بالامور العملية . يترك العقائد والاقوال الموضوعة والدعوى بمعرفة حقيقة الاشياء ويتمسك بما توحيهِ اليهِ الطبيعة ويستنتجهُ من افعالها

وهذه الطريقة اي الطريقة العملية تغير مزاج الفلسفة فيقف امامها الفلاسفة النظريون مغلولي الايدي كما يقف رجال الملكية اذا صارت البلاد جمهورية فتقترب بها الفلسفة من العلم ويتعاشقان ويتفقان

لقد كان للسحر شان كبير في تاريخ الانسان وكان اعتماده على الالفاظ والجمل التي يعزم بها على الجن والشياطين والعفاريت التي قالوا ان سليمان كان يحبسها ويأمرها بما يشاء لانه كان يعرف اسماءها . وكذلك جرت الفلسفة معتمدة على الالفاظ والحدود كأن اسرار العالم طلاسم لا تحل الا بهذه الالفاظ او بما فيها من القوة التي تثير العقول مثل كلمة هيولى وقوة وعقل وما اشبه وتجد الانسان يستريح اذا وصل اليها فيقف عندها كأنها خاتمة المطاف ولا شيء وراءها

ولكن الفلسفة العملية لا تقف عند حد الالفاظ بل تطلب ان تعلم مدلول كل لفظة منها اي قيمتها العملية وهي لا تحل مشاكل الفلسفة بل ترشد الى طريق البحث والاستقصاء والاستقراء وعليه تصير الآراء النظرية آلات تبحث عن الغوامض ولا تبقى حلاً للغوامض كما كانت قبلاً فلا تنام معتمدين عليها بل نسير ونستعين بها في سيرنا . وليس في ذلك شيء جديد في الجوهر بل هو مطابق لما مال اليه ويجري عليه كثيرون من الفلاسفة الاقدمين فهو موافق لما اعتقده الفلاسفة التفعيون في نظرهم الى الجهات العملية والفلاسفة اليقينيون في احتقارهم الحل اللفظي والبت من المسائل وما لا يدرك منها

فالفلسفة العملية تناوئ الفلسفة النظرية في ادعائها كشف الغوامض وحل المشكلات ولكنها لا تدعي انها تؤدي الى نتيجة محدودة ولو في مبدإها وما هي سوى طريقة للبحث او كما قال عنها الفيلسوف بايني الايطالي انها كالبطيخ في المنزل تفتح اليه كل ابواب غرفه فترى في غرفة منها رجلاً يؤلف كتاباً في موضوع ادبي وفي الثانية رجلاً راكعاً على ركبتيه يطلب الايمان والقوة وفي الثالثة كيماوياً يمتحن خواص الاجسام وفي الرابعة اناساً يكشفون بعض الغوامض الفلسفية وفي الخامسة اناساً غيرهم يبينون استحالة المذاهب الفلسفية ولكنهم كلهم يتشكون البطيخ الذي بين غرفهم ويستعملونه للوصول اليها والخروج منها

فالفلسفة العملية طريقة للبحث ترشد من يسير فيها الى الاعتماد على النتائج والوقائع والثمرات بدل الاعتماد على المبادىء والمقولات والمطلقات

وسنأتي على تتمة هذه الخطبة في الجزء التالي لان معانيها عويصة تقتضي تفصيلاً سهلاً لا يحتمله هذا الجزء فضلاً عن ان غرضها من اهم الاغراض التي يرمي اليها محبو نوع الانسان